مجلة المرابط

العدد : ١٨٩ الموافق في ذو الحجة ١٤١٧ هجري ٥ / ١٩٩٧ ميلادي

عنوان المقال : الحق أحق أن يتبع –٣–	بقلم : د. موفق الحكيم

٣- عدم الاهتمام الكافي بتزكية النفوس وتوعيتها :

وهذه هي ثالثة الأثافي ، التي سارت بذكرها الشوارد والقوافي ، وهي من المشاكل الكبرى التي كانت ولا تزال تعاني منها بعض الحركات أو الجماعات الإسلامية ، حيث أنها جهلاً أو غفلة لا تسعى إلى تربية أفرادها على القواعد الأساسية للإسلام ، وصرف اهتمامهم إلى المنبع الشافي والمعين الصافي : القرآن والسنة ، وتوجيههم إلى دراسة فقه الدين فيما يتعلق بالعبادات والمعاملات والأخلاق ، والفروق ما بين الأصول والفروع ، والفرائض والنوافل ، والأوليات والثانويات... وهذا ما فعله رسول الله ﷺ ، وخاصة في العهد المكي ، حيث بقي سنوات عديدة يُعلم أصحابه الكرام هذه الأمور جميعاً ، قولاً وعملاً ، سُنة واقتداءً ، حتى تسربت إلى عروقهم وخالطت دماءهم ، وتشربتها نفوسهم ، ووعيتها عقولهم ، يقول سهل بن هارون : « فإن تقديم النافلة مع الإبطاء في أداء الفريضة شاهد على وهن العقيدة ، وتقصير الرؤية ، ومُضر بالتدبير ، ومخل بالاختيار ، عوضاً عن فساد المروءة ولزوم النقيضة » [انظر : أمراء البيان لمحمد كرد علي ، ص ١٥٢] . وأما ما نراه اليوم من بعض الحركات الإسلامية - وللأسف الشديد - أنها تُعلم أفرادها منذ نعومة أظفارهم " الحركية " وبدون وجود قاعدة إسلامية راسخة صلبة لديهم ، على وجوه الاختلاف بين الحركات ، وأصول الخلاف بين الجماعات ، والتصدي للحاكم والمؤسسات ، وإشغال النفوس والأوقات بإعداد الدراسات المستفيضة التي تتكلم في بعض الأمور أمثال الحكم والحكام ، والخلافة ، والمبايعة ، والتكفير ، والخروج عن الجماعة ، والجماعات الضالة والفرق الناجية ، والجاهلية في المجتمع المعاصر... بينما ليس لدى أفرادها أدنى المعلومات وأقل المعرفة بأمور الدين والدنيا ، وفقه العقيدة والعبادة والمعاملات والأخلاق ، وقواعد التحريم والتحليل... وهذا ينعكس انعكاساً سلبياً على أفراد هذه الجماعات فكراً وسلوكاً وشعوراً وتعاملاً ، وخاصة في علاقاتهم مع الجماعات الأخرى وباقي المسلمين. يقول الأستاذ محمد الغزالي رحمه الله : « هجر المسلمون القرآن إلى الأحاديث ، ثم هجروا الأحاديث إلى أقوال الأئمة ، ثم هجروا أقوال الأئمة إلى أسلوب المقلدين ، ثم هجروا المقلدين وتزمتهم إلى الجهال وتخبطهم ، وكان تطور الفكر افسلامي على هذا النحو وبالاً على الإسلام وأهله ». والأمر أخطر مما يتصوره الإنسان ، وهذا الكلام يؤيده - وللأسف - الواقع العملي والمعايشة الحركية والممارسة الدعوية ، ولقد سمعت من أحد الإخوة

الثقات عن إحدى الجلسات ، أقيمت على مدار ثلاث صلوات ، ولم تُقم فيها الصلاة !!! وكان مدار الحديث الذي استمر عدة ساعات ، بين كؤوس الشاي والمكسرات والمرطبات ، عن استبدال أنظمة الحكم الفاسدة ، والواقع الظالم القائم ، ووسائل تغيير هذه الأوضاع الفاسدة والنظم القائمة !!!.

ومهما أنسَ فلن أنسى إحدى الجلسات التي جمعتني وإخوة آخرين مع أحد العناصر البارزة والمسؤولة في إحدى الحركات الإسلامية ، وبعد أن افتتح مدير الجلسة بـِ « بسم الله الرحمن الرحيم » وقبل الشروع بقراءة القرآن ، أخذ هذا الأخ المسؤول بالتطاول والافتراء على أحد الدعاة المجاهدين المخلصين ، وألحق به أبشع الافتراءات ، وأشنع الاتهامات ، واتهم أفراد جماعته بالضلال والنفاق... وبعد أن هدأت الأمور وسكنت النفوس ، وأطفئت النيران بعد الغليان ، وجاء دوره في قراءة القرآن أخذ يتتعتع به ويَشهد الله أنه كانت تُصححُ له معظم الكلمات !! أقول : إعراباً لا تجويداً !!!.

إن البناء السليم لا يقوم ولا يثبت إلا على قواعد متينة وأسس راسخة ، مهما كان البنيان ظاهرياً شامخاً متطاولاً في الفضاء ، فإنه إذا لم يبن على أسس متينة وقواعد صلبة فإنه عرضة للسقوط والانهيار عند أول هزة أو أبسط زلزلة ، وهذا شأن الحركات الإسلامية التي تعتمد في سياستها ومناهجها على التجميع العددي للأفراد من غير نظر إلى العامل النوعي والكيفي ، وإن النمو العددي على حساب العامل النوعي ضرر كبير للحركة ولغيرها ، وإن الكم غير السليم وغير الواعي هو شلل للحركة وتعطيل للطاقات المنتجة فيها ، وإن الكم الواسع غير السليم والذي تسعى إليه بعض الجماعات بقصد التزيين العددي إنما هو قلائد من حديد وفولاذ تجذب للأسفل ، وتمنع النظر للأعلى والأمام ، وتشكل عبئاً على سير الحركة وتطورها ، وعلى العكس تماماً فإن العدد النوعي السليم الواعي والمهيأ تربية وتزكية وتوعية - وإن كان قليلاً - فإنه بإمكانياته وطاقاته وإخلاصه ورؤيته الصحيحة للمستقبل قادر على تحريك طاقات المسلمين الآخرين وتفجير مكنونات القدرة والطاقة لديهم ، وربّ شخص واحد قادر على تحريك الآلاف من الناس ، وربّ آلاف من الأشخاص لا يستطيعون تحريك حجر من مكانه. يقول الأستاذ الحبيب عصام العطار حفظه الله : « حجم الأشياء الحقيقي إنما هو حجمها في النفوس والأفكار... فرب حادث واحد له في ألوف الأشخاص ألوف الأحجام والآثار ».

نعم ، إن إعداد الأفراد وتربيتهم وتزكية نفوسهم وتوعيتهم هو المطلب الرئيسي الذي يجب على قيادات العمل الإسلامي أن تضعه نُصب أعينها ، وإن إعداد القاعدة الراسخة الصلبة والمتينة هو الأساس الصحيح لقيام أي بناء سليم ، ويجب ألا نستعجل الأمور ، وأن نتجنب حرق المراحل ،

واستعجال النتائج ، وقد كان لنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة وقدوة رائعة ، حيث بقي حوالي ثلاثة عشر عاماً في مكة وهو يكافح ويناضل ويسعى من أجل هذا الهدف العظيم بكل صبر وحكمة وتؤدة ، وعندما هاجر إلى المدينة لم يكن عدد الصحابة والمهاجرين يتجاوز بضع مئات ، ولكنهم استطاعوا في خلال أقل من ربع قرن من الزمان أن يفتحوا العالم من أقصاه إلى أقصاه. يقول الأستاذ عصام العطار : « بناء الإنسان المسلم نفسه لا يتم بطرفة عين ، ولا يكون بالأمنيات وأحلام اليقظة ، ولكنه يحتاج إلى الباعث القوي والإرادة الصارمة ، والجهد المخلص الذي لا يفتر ولا ينقطع ، وإلى علم بغايته ومهمته في بلاده وعالمه وعصره ، وبَصَرٍ بمتطلبات الحاضر والمستقبل وحسن تنظيم للوقت والجهد ، واستفادة من أفضل ما توصل إليه العلم والفكر من وسائل ، وما يعطيه الواقع الراهن من إمكانات ، والمثابرة على ذلك كله إلى نهاية الحياة ».

أما أن نغير الواقع الفاسد ونحن لم نغير أنفسنا بعد ، ونأمل في أن نقيم دولة الإسلام على الأرض ونحن لم نرسخ أركانها في النفوس ، وأما أن نضع النظريات ونرفع الشعارات ونحن نقتلها ونرجمها بممارستنا العملية وتطبيقاتنا اليومية فإنه خطر من أكبر ما يواجه الإسلام والمسلمين ويلحق أفدح الأضرار بهم وبإسلامهم على المدى القريب والبعيد.

لنقف ونتدبر ملياً دعاء سيدنا إبراهيم عليه السلام في سورة البقرة { **ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم** }[البقرة:١٢٩]. وبعد عدة آيات في نفس السسورة يأتي البيان الإلهي العظيم ليضع الأولويات : { **كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون** }[البقرة:١٥١] حيث كان الترتيب مشابهاً للآية الأولى عدا أنه قدم التزكية على التعليم والحكمة... وقد تكرر نفس الأمر في الآية ١٦٤ من سورة آل عمران { **يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة** } ، ووردت نفس الآية في سورة الجمعة {**يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة** }[الجمعة:٢] مما يدل على الأهمية الكبرى في تزكية النفوس وتطهيرها وإعدادها ، والذي يجب أن يقدم على كل شيء آخر. يقول الشهيد سيد قطب رحمه الله في الظلال : « ولكن الله أرسل رسوله محمداً ﷺ يطهر أرواحهم من لوثة الشرك ، ودنس الجاهلية ، ورجس التصورات التي تثقل الروح الإنساني ، ويطهرهم من لوثة الشهوات والنزوات فلا ترتكس أرواحهم في الحمأة ، ويطهر مجتمعهم من الرياء والسحت والغش والسلب والنهب وهي كلها دنس يلوث الأرواح والمشاعر ويلطخ المجتمع والحياة ، ويطهر حياتهم من

الظلم والبغي ، وينشر العدل النظيف الصريح ، ويطهرهم من سائر اللوثات التي تلطخ وجه الجاهلية في كل مكان من حولهم ».

إن عدم الاهتمام الكافي والإلمام الوافي بإعداد النفوس وتزكيتها وتوعيتها يمكن أن تنجم عنه مشاكل خطيرة وأعباء ثقيلة ، تلحق أفدح الضرر بالحركة التي ينتمي إليها هؤلاء الأفراد ، وبالحركات الإسلامية الأخرى ، كذلك الأمر بالنسبة لسائر المسلمين ، ومن هذه الأخطار نذكر على سبيل المثال لا الحصر:

١- إن قلة العلم والوعي والدراية ستخلق للحركة وعلى مدار السنين مشكلات لا تُحصر ولا تنتهي ، وخاصة عندما تتضارب مصالح هؤلاء الأفراد وأهواؤهم مع ما تراه الحركة ، وغالباً ما ينتهي الأمر بعد شهور أو سنوات من المناقشات العقيمة والجلسات الطويلة إلى الانشقاق والتحزب. وما يسبقه وما يلحقه من تبادل أبشع الاتهامات وأحقر العبارات. يقول الأستاذ عصام العطار: « ما أكثر الانتهازيين الذين يؤيدونك ويمجدونك بمقدار ما يستغلونك ويستخدمونك لتحقيق مصالحهم الخاصة على حساب دينك ونزاهتك ، ومصلحة الإسلام والمسلمين ، فإن أبيت عليهم ذلك أو وجدوا مصالحهم عند سواك تخلوا عنك وتنكروا لك أو انقلبوا عليك بمختلف المبررات الكاذبة والأعذار الخادعة ».

٢- أنهم سيلحقون أفدح الضرر بالطاقات المنتجة المعطاءة في هذه الحركة ، وخاصة إذا كان لهم قصب السبق والرأي النافذ ، وعندما تشعر هذه الطاقات المنتجة أنها تسبح في بحر لا ساحل له من الخلافات السطحية ، وأنها تغوص في لجة بحر عميق لا قرار له بحثاً عن الجذور المريضة بقصد إصلاحها أو اقتلاعها ، وعندما تشعر أن نتاج عملها بعد سنين هو حصاد الهشيم وقبض الريح ، وأن الجهل والغفلة والسطحية وحب الظهور ، وعبادة الميكروفونات ، قد ملك زمام الأمور أو جُلها ، عندها ستقف ، وتتأمل ، وتفكر ، وتبحث عن البدائل ، وتتحرى في أي القوافل تكون فيها من الإبل بمنزلة الرواحل.

٣- أنهم سيكونون حجر عثرة وعقبة كؤود في التقاء الحركات الإسلامية وتعاونها فيما بينها ، لأنها عقول مقفلة غلب عليها الكيد ونزع بها لؤم الطبع شرّ منزع ، تسعى إلى تحقيق مصالحها وأهوائها ورياستها ، ولو على حساب الإسلام والمسلمين.

٤- أنهم قد يُستغلون بسهولة من قبل أعداء الإسلام ، واستخدامهم رأس حربة في مهاجمة الإسلام والمسلمين ، وكيف لا وهم يتصدرون المجالس بأسماء العلماء وإن كانوا بأفعالهم قد يتجاوزون أظلم

الجهال ، وخاصة عند مواجهة الشدائد والمغريات والتحديات.

٥- انهم قد يتصدون للفتوى وإطلاق الأحكام ، وهم ليسوا أهلاً لها ولا أبناء بجدتها ، معرضين أنفسهم لعقوبة من الله عز وجل بذنب يعتبر من أكبر الذنوب وهو القول على الله بغير علم : { **قل إنما حرم ربيَ الفواحشَ ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون** }[الأعراف:٣٣] كما إنهم يعرضون المسلمين لأفدح الأضرار وأسوأ العواقب بسبب هذه الفتاوى الباطلة الظالمة التي تُستغل من قبل أعدائه ومحاربيه. يقول الأستاذ عصام العطار : « إنكم لستم أغيرَ من الله على دينه ولا أحكم من الله في وضع الأشياء مواضعها من شريعة الله ، فلا تتنطعوا ولا تَغلوا في دينكم غير الحق ، ولا تسيئوا بمواقفكم الجاهلة أو المغالية إلى الإسلام والمسلمين ».

ولعل من أخطر هذه الفتاوى التي يلجأ إليها هؤلاء الجهال الذين يظنون أنهم أعبد العباد وأصلح المصلحين ، هو استسهال تكفير المسلمين ونعتهم بأبشع الصفات والأوصاف من الضلال والجاهلية والنفاق ، والدعوة إلى الانعزال عنهم ومحاربتهم ، وإلى استخدام العنف معهم. وقد قيل « إن مقاتل المرء تبدو متى عالج عملاً ليس منه بسبيل ». يقول الأستاذ عصام العطار : « يجب أن تبدأ بالدعوة والإقناع والتعليم والتربية ، وتوفير ما يستطاع من الشروط المساعدة على التزام الإسلام قبل أن ترفع السيف في وجه من لا يلتزمون بالإسلام. أما الذين يبتدئون بالسيف فهم - في الغالب - لا يفهمون الإسلام ولا ينطلقون من الإسلام ، ولا يخدمون قضيته ولا يحققون به لأمتهم وبلادهم وللإنسانية كلها ما يريده لهم ويقدمه إليهم من الخير ».

٦- أنهم بتصرفاتهم الخاطئة الجاهلة وبسبب قصور الرؤية لديهم وعمى البصيرة قد يرتكبون من الأخطاء ما يسهل على أعداء المسلمين - وما أكثرهم - ضربهم وضرب الحركات الإسلامية الأخرى المخلصة وضرب سائر المسلمين ، ومحاولة ما يسمونه " تجفيف المنابع " والتي لا تعني أكثر من ضرب أي مسلم يحاول أن يطبق الإسلام في ذاته ومجتمعه. يقول الأستاذ عصام العطار : « يا شباب الإسلام لا تعطوا الفرصة بأخطائكم وقصور رؤيتكم وخبرتكم لأعداء المسلمين لضربكم وتصفيتكم واتخاذكم أو اتخاذ بعض أعمالكم ذريعة لضرب الإسلام والمسلمين المخلصين العاملين ، ومحاولات القضاء على البعث الإسلامي قبل أن يكتمل ويأخذ مداه ، ولا تعطوا الفرصة لأعداء الإسلام لاستدراجكم أو دفعكم إلى أعمال ومواقف تسهل لهم ما يريدون ».

نعم قد تكون المقالة مؤلمة ومرة ، ولكن لا بد من النقد الإيجابي الذي يقع على مواضع القوة فينميها ويزكيها ، وعلى مواضع الضعف فيمحوها أو يقلل منها ويعصم من السقوط والإسفاف. اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه ، اللهم ألهمنا رشدنا وسداد خطانا على طريق الألفة والمحبة والخير.